

هيجل والعلاقات الدولية: التمثيل المعرفي والتمثل الجدلي

أ. محمد أمين بن جيلالي¹

جامعة بومرداس

ملخص:

هيجل في العلاقات الدولية؛ منظور جدلي للظواهر الدولية. هو نظرية سياسية للحقل، افترضت أن النشاط الدولي لا بد أن يخضع للنظرية المعيارية، لكن في نفس الوقت، لا ينفي النظرية الوضعية. بأكثر دقة، السير نحو توليف وتركيب يطرح البديل الابستمولوجي والمنهجي في دراسة السلم والحرب، وذلك من منطلق واحد هو توليد الاعتراف من رحم الصراع، والعكس بالعكس، في ديمومة للارتقاء نحو رؤية شاملة للعلاقات الدولية في العالم المعاصر. الكلمات المفتاحية: هيجل، النظرية السياسية، العلاقات الدولية، الجدل، التركيب، الصراع، الاعتراف.

Abstract:

Hegel in international relations; dialectical perspective of international phenomena. Is a political theory of the field, it assumed that the international activity must be subject to the Normative theory, but at the same time, it does not negate The Positivism theory. More precisely, to move towards the synthesis and installation of alternative poses Epistemological and methodical in the study of peace and war, And so out of one is generating recognition from the womb of the conflict, and vice-versa, In continuity to rise toward a comprehensive vision of international relations in the contemporary world.

Keywords : Hegel, political theory, international relations, Dialectic, synthesis, conflict, recognition.

¹-أستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة أحمد بوقرة -بومرداس، باحث وأكاديمي في الفلسفة السياسية المعاصرة. البريد الإلكتروني:

amine.bendjilali@yahoo.fr

مدخل تيلولوجي²:

انزاحت وجهة هيغل نحو ضبط علاقة نسقية مع علم العلاقات الدولية بعد إشتغاله على الفكر السياسي وفلسفاته النظرية، وهذا بدايته ومآله طبيعة النظرية الهيجلية القائمة على منهج الجدل الذي لامس كل أقاليم التفكير العلمي والفلسفي. إنّ تركيز أطروحة هيغل في السياسة والدولة والقانون برز في إتجاهين علائقيين؛ السياسة الداخلية (علاقة الدولة بالمجتمع المدني) والسياسة الخارجية (علاقة دولة بدولة أخرى). لكن المتأمل يجد نفسه ضمن متاهة إستيمية في دراسته للنظرية السياسية عند هيغل لأنها تحمل بُعد «بين-تخصصي»، مُتعدّرة عن الموضوعة والتصنيف، فاقدة للهوية والمحل في خارطة المعرفة السياسية.

وعلى هذا الأساس نسعى للكشف عن الوجه الآخر المتواري لهيغل من خمسة مناطق أساسية تمثل بؤر التماس الإشكالية والإلتماس المعرفي بين هيغل والعلاقات الدولية: أولاً، إرتحال هيغل من الفكر السياسي إلى النظرية السياسية للعلاقات الدولية. ويبرز ذلك جلياً في بحث هيغل عن تصور جديد للقانون الدولي؛ منتقداً آراء كانط الواردة في رسالته: «من أجل سلامٍ دائمٍ»، كما وجّه نقده للمحاولات الأولى³ التي قام بها بعض رجال القانون في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر من أجل تكوين قانون دولي عام ينظّم العلاقات بين الدول المستقلة⁴؛ ثانياً، المفارقة البارزة بين الواقعية (Realism) والطوباوية (Utopianism) في التفكير السياسي عند هيغل المتصل بالعلاقات الدولية وقضاياها⁵؛ ثالثاً، السؤال النظري عن الإضافة المنهجية التي قدّمها «الديالكتيك» (Dialectic) للدارس في العلاقات الدولية، وماذا عن «فلسفة الحق» في تحليل هذا الحقل؟؛ رابعاً، إستنتاج أهم الروابط النقدية بين الفكرة

² - التيلولوجيا (Teleologie) مصطلح إبتكره "ولف"، قصد به علم الغايات، وظف في هذا السياق لتحديد غاية البحث ووجهتها ضمن نسق علائقي

طالع: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001، ص. 1430

³ - هذه المحاولات باءت بالإخفاق حتى قيام عصبة الأمم سنة 1919، بل وحتى قيام هيئة الأمم المتحدة سنة 1945 غداة الحرب العالمية الثانية وهذا ما يتوافق مع رؤية هيغل، حين إعتبر أنّ القانون الدولي هو إطار لما يجب أن يكون، وليس لما هو قائم فعلاً. أنظر: عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة عند هيغل، دار الشروق، بيروت، ط1، 1996، ص. 220.

⁴ - المرجع نفسه، ص. 220.

⁵ - Tony Burns, «Realism and Utopianism in Hegel's Political Thought: National Sovereignty, International Relations and the Idea of a 'World State'», *Working Paper Series*, Centre for the Study of Social and Global Justice, School of Politics & International Relations, University of Nottingham, P 17. See Link:

www.nottingham.ac.uk/cssgj/documents/working-papers/wp006.pdf

الهيغيلية حول «نهاية التاريخ» من جهة (يرتبط هذا المفهوم إرتباطاً وثيقاً بفرانسيس فوكوياما الذي نشر كتابه «نهاية التاريخ والرجل الأخير» عام 1991)، والدولة العالمية من جهة أخرى؛ خامساً، نقد المفهوم المطلق للحرب؛ باعتبارها «شراً مطلقاً»؛ وأيضاً مشكلة الآخر و«الصراع من أجل الاعتراف» (The Struggle For Recognition) فيما يتعلّق بتاريخ العالم.

يتطلب تناول هذه المناطق الحساسة في التفكير السياسي للعلاقات الدولية عند هيغل أن نبحت عن الخيط الناظم الذي يوحد الحدود بين هاته الاستفهامات الفكرية، ويرسم هيغل كمفكر له باع طويل في إثراء وتطوير علم العلاقات الدولية على المستوى الأنطولوجي، الاستيمولوجي والمنهجي. قبل ذلك يجب أن نقرأ هيغل في سياقه «الأكسيموري» (من كلمة أكسيمور oxymore، والمقصود بها التناقض الظاهري) المتولد من بيئته الشخصية، وفي مناخه لتوازنات وإختلالات الظرف الدولي خلال عصر التنوير في ألمانيا وأوروبا عامة.

1- البيو-ثقافة الدولية في الزمن الهيغيلي: الإشتراطات الجدلية والتوازنات الدولية

غِيورْغُ فِلهِمُ فِرِيدْرِيشُ هِيغلُ Georg Wilhelm Friedrich Hegel (شتوتجارت 1770 - برلين 1831)، فيلسوف المثالية الألمانية في القرن التاسع عشر، بحيرة عظمى تفرعت عنها: الماركسية، الوجودية، الهيغيلية الجديدة، البروتستانتية المتحرّرة، لُقّب بنابوليون الفلسفة الذي كوّن إمبراطورية عقلية كبرى بمذهبه الفلسفي⁶، الذي يمكن نعتة بالنسق الشامل المنفتح باستمرار على القراءات المتعددة، متكامل ومنسجم في وحدته، متعدد في آفاق وأعماق فكرته الأساس (العقل الكلي أو الروح المطلق). خاصة عندما يطرق التحليل الهيغيلي مشكلات وقضايا العلاقات الدولية، كالسلم، الحرب، العدالة والحرية... إلخ.

إنّ حياة هيغل وعصره هما «نسيج من التناقضات» (Contradiction)، فقد كان التنوير الموعّل في الإيمان بالعقل على وشك الأفول، في الآن نفسه، الرومانسية الغارقة في العاطفة والخيال بادئةً في البزوغ. لقد عاش هيغل في وسط مجتمع إقطاعي تسوده رجعية النبلاء الذين يعترضون الطبقة الوسطى إعتصاراً، لكنّه أيضاً يميل مع رياح الثورة الفرنسية التي تمهّب عاتيةً مناديةً بتحرير الإنسان وإنطلاقه⁷.

⁶ - هيغل، أصول فلسفة الحق، المجلد الأول، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص4.

⁷ - هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ، المجلد الأول، ترجمة وتقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 2007، ص9.

إذن؛ كان الطابع العام للعصر الذي نشأ فيه هيغل، هو فكرة التناقض التي يمكن أن نجد لها أصول فلسفية عند الإغريق مع هيراقليطس في العود الأبدي المحتضن للثبات والتغير، أو مع أفلاطون في جدله الصاعد والنازل، ... إلخ. هذا ما حرر لنا ما يعرف عند هيغل «بالأوفوبوغونية»⁸ المتأسسة على الحوار بين السلب (Negation) والإيجاب، في شكل تجاذب أو تنافر، نفي وإثبات. الأمر الذي سنلاحظه يتكرر في قانون الجدال الماركسي المتمحور حول فكرة «نفي النفي، ووحدة الأضداد وصراعها».

أمّا عن السياق الدولي الذي احتك به هيغل خلال نهاية القرن الثامن عشر فقد تبدّى في إنتظام الدول الأوروبية داخل مبدأ توازن القوى لأجل الصالح العام. وغالباً ما كانت المصلحة الذاتية، حافز للدول على إنشاء تحالفات لكبح القوى المنافسة. لكن واقع السعي وراء مبدأ توازن القوى روج لفكرة «الصالح العام» التي كانت أكبر من «المصلحة الذاتية للدولة»، وبالتالي العمل وفق الإمتثال لآلية نظام واحد، تُحرّكه مؤسسات وممارسات متكاملة هي: القانون الدولي (والذي عُدد تدويناً قانونياً لممارسات عرفية راسخة)؛ والإعتراف بشرعية السلطة السيادية الداخلية؛ وقبول مبدأ عدم التدخل؛ والحضور الدبلوماسي الدائم والحوار المتواصل؛ وأخيراً اللجوء إلى حربٍ محدودة⁹ كوسيلة لتعديل الإختلال في التوازن. إذن لم يكن هناك نظام يقي من الحرب، لكنّها كانت حرباً محدودةً هدفها تقليص قوّة الدولة المقصودة لا تدميرها كلياً¹⁰.

مثلت هذه الإشتراطات الجدلية والتوازنات الدولية النابعة من صميم الواقع، تحدي قوي لهيغل لمناظرة العقل المفكر في السياسات الدولية والداخلية على حدّ سواء، ومن هنا نبتت النظرية السياسية عند هيغل والتي كانت منبثقة عن

⁸ - تعني هذه الكلمة في أصلها الفعل (Aufheben): يُلغى ويحتفظ ويرفع. ما يبحث عنه هيغل في مسار التاريخ هو «ألفغوهوبان»؛ كلمة ألمانية تقنية تعبّر عن إرتفاع شيء ما إلى المستوى التالي، أن ترتفع فوق المعضلة الحالية وتنقل إلى المرحلة التالية من التطور حيث تسمو فوق الصعوبة الحالية وتحلها من خلال فرضية جديدة ذاك هو الإختبار، التوليفة هي إختبار «ألفغوهوبان». العبارة العصبية (Das Aufheben) وتصريفاتها في النص الهيجلي الإشتقاق من «نسخ»، متى تعلق الأمر بمصدر (Die Aufhebung) والإنتساح، متى تعلق بالفعل المنعكس على الذات (Das Sichaufheben) [...]. النسخ يتضمن دلالات النفي والإلغاء، الإحتفاظ والإبقاء على شيء مما يُنفي، [...] التضاد بين زوال شيء في المنسوخ وبقاء شيء منه. أنظر: هيغل، فينومينولوجيا الروح، ترجمة وتقديم ناجي العونلي، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2006، ص105-106.

⁹ - الحرب المحدودة (Limited War)؛ يعود هذا المفهوم إلى المنظرين العسكريين "كلاوزفيتز" في القرن التاسع عشر وخليفته في القرن العشرين "لبدل هارت" على العلاقة الحاسمة بين الغايات السياسية والوسائل العسكرية. «ينبغي أن تكون الأهداف السياسية، والدوافع الأصلية للحرب، معياراً لتحديد كل من هدف القوة العسكرية وحجم الجهد لتحقيقها». في منتصف الحرب العالمية الثانية جاء مفهوم الحرب الشاملة كبديل بعد تطور الأسلحة النووية. أنظر: -Khurshid Khan, «Limited War Under the Nuclear Umbrella and its Implications for South Asia», P.3, See Link:

<http://www.stimson.org/images/uploads/research-pdfs/khurshidkhan.pdf>.

¹⁰ - دافيد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية: من ثيوسيديس حتى الوقت الحاضر، ترجمة رائد القاقون، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2013، ص591-592.

تم فصل المعرفة الفلسفية بالمعرفة السياسية، حيث برزت في المحصلة ضمن قالب جدلي (modèle dialectique). إن النموذج الجدلي يستمد أصله من فلسفة التاريخ عند هيغل، التي يمكن أن تمنحنا مسوغاً أنطولوجياً تاريخياً للبحث في علاقة هيغل بعلم العلاقات الدولية.

2- الأركيولوجيا التاريخية للعلاقات الدولية عند هيغل: بناء منطق تاريخي (Historical Reason)

لقد اقترح دافيد باوتشر وجود ثلاث تقاليد نظرية (الواقعية التجريبية، النظام الأخلاقي العالمي والمنطق التاريخي)، ترتبط فيما بينها جدلياً وتوفر معايير مختلفة لسلوك الدولة¹¹. والمنطق التاريخي هو الآخر يتضمن جدل رسم معلمه هيغل في رؤية العالم (weltanschauung) نحو تغييره. في تقديري أن مفهوم «العالم» عند هيغل يوازي كينونة العلاقات الدولية، لأنّ الشعوب في ظلّ «إنوجادها» تميّزت بطابع العلاقات الثقافية والحضارية والتاريخية التي تستوجب التفاعل في إطار الحرب أو السلم، وعليه هذا العالم له «تاريخ» ينشد التحقق الفعلي للروح الهيجلي، وتُميّزه «جيو-سياسة»؛ المناطق التي حددها هيغل حسب أولياتها الزمنية والمنطقية (الشرق، اليونان، الجرمان، الرومان). إذن تاريخ العالم هو التحقق الفعلي للروح داخلياً وخارجياً على حدّ سواء. كما يبدو أن الروح الكلي هو الوعي الذاتي الذي يبدو في ضرورته متصلاً في الموضوعي الذي يُجزّء الكل المطلق للروح، وعليه فتاريخ العالم ضروري من منطلق أنه «محكمة التاريخ» (إختبار حقيقة الكلي في الجزئي)، وهذه تُوافق الإعتبار المنهجي الذي يسير وُفقه الباحث في العلاقات الدولية؛ «التاريخ مخبر علم العلاقات الدولية». إرتكزت الهندسة الهيجيلية للعالم الكلاسيكي على مبدأ التطور التاريخي المستند بدوره على العقل أو ما يعرف عنده ب«العقل في التاريخ»، حيث شكلت هذه المقاربة الواردة في «محاضرات في فلسفة التاريخ»، تشكيل جديد للتناول الاستيمولوجي لمواضيع الفكر السياسي والنظرية السياسية عند هيغل جعلت الباحث يتعاطى مع الظواهر والشخصيات الفكرية السياسية، بمنهجية تحليلية نقدية، لا تاريخية فقط تركز على كرونولوجيا الأحداث، دون الربط السببي والتحليل المنطقي والحجاج الفلسفي.

فإذا كان التاريخ في نظر هيغل هو تطور الروح في الزمان، كما أنّ الطبيعة هي تطور الفكرة في المكان. فإنّ نتيجة ذلك تتعدد الثقافات والحضارات والأمم¹². وبالتالي هذه الفكرة تُسوّغ ضرورة تواجد كينونة للعلاقات الدولية، واحدة في جوهرها، متعددة في تعيّناتها. من هنا تنبجس للعيان عند هيغل نماذج وبراديجمات متقابلة تسعى إلى اقتفاء الصورة الحقيقية لعالم العلاقات الدولية، بعيداً تماماً عن الرؤية الكوسموبوليتانية التي تراعي الأخلاق العالمية، لأن كل نموذج يعبر عن

¹¹ - المرجع نفسه، ص 97.

¹² - مونس بخصرة، تاريخ الوعي: مقاربات فلسفية حول جدلية إرتقاء الوعي بالواقع، منشورات الإختلاف-الدار العربية للعلوم، الجزائر-بيروت، ط.1، 2009، ص 263-264.

رؤية حضارية معينة يريد فرض منطقها على الأمم الأخرى. لفهم المآل التاريخي ينبغي العودة إلى التكوين الجينيولوجي للعلاقات الدولية عند هيغل، بحيث سنقترح على هذا النحو نمذجة هيغلية للعلاقات الدولية تسير وفق ترحل وتدرج تاريخي، وعليه طبع العلاقات الدولية في تصور هيغل أربع نماذج، نقتصر على ذكرها في التالي:

أ- البراديجم الشرقي: يتمظهر في هذا النموذج مجتمعات طبيعية يحكمها نظام أبوي «بتريركي وثيوقراطي»، يفتقد للتقسيم الداخلي، ويحتكم للدين الذي يعدّ دستوراً وتشريعاً، في نفس الوقت. فالأوامر الدينية والأخلاقية أو العرف، والمعاملات هي القانون الإيجابي الطبيعي. في هذه المرحلة تتلاشى الشخصية الفردية وتفقد حقوقها وسط تألق هذا النظام بوصفه كلاً، أما عالم الطبيعة الخارجي فهو إلهي. تتطور هذه الخصائص إلى عادات وحكومة ودولة في جوانبها المتعددة وتصبح في حالة عدم وجود القانون، وبساطة العرف، طقوساً مضطربة ومحشوة بالخرافات، وألواناً من المصادفات لحكم تعسفي، كما تتبلور الاختلافات الطبقة لتصبح طبقات مُغلقة وراثية. ومن ثم لا يوجد في الدولة الشرقية شيء ثابت محدّد، فهذه الدولة لا تستمر إلا في حركة خارجية، هي في النهاية إكتساح وخراب أساسيين، وليس سلامها الداخلي سوى سلام حياة غير سياسية وإنغماس في الضعف والإجهاد¹³. بنظرة خاطفة حول جوهر العالم الشرقي نرسم خارطته السياسية والاجتماعية وفق معالم ميّزت بنائه وعلاقاته، فالنظم اللاهوتية هي دستور للنظم السياسية، والجماعة هي بوتقة تسري في ثناياها حياة الفرد، وعلاقة الشرق بالأمم الأخرى يحكمها النظام الإلهي. إذن؛ العلاقات الدولية في العالم الشرقي حسب هيغل هي انعكاس لإنعدام صورة الفرد في المجتمع، فالدولة الشرقية تتحرك ككتلة أخلاقية ودينية وعرفية في مواجهة التحديات التي تفرضها الشعوب الأخرى.

ب- البراديجم الإغريقي: تعددت أوصاف اليونان للعالم البربري بأنّه همجي وقديم ومتوحش، والدليل على ذلك هو عالم تنعدم فيه الديمقراطية على خلاف العالم اليوناني المنظم، المتماثل، والمحدود بالبحر، الذي يتمتع بالحرية والديمقراطية. إعتقد اليونان بأنّ البرابرة هم بالطبيعة عبید وأنّ الأساليب البربرية في الحياة غير مقبولة كلياً لدى اليونان والفرس، لذلك كان من المستحيل تصور علاقات وثيقة بين اليونان والفرس، فقد إعتبرت الحرب ضد الفرس حرباً مقدّسةً أي أنّ الآلهة باركتها، وبأنّها الحرب الوحيدة المفضّلة على السلام، هنا إشارة واضحة من هيغل إلى نبذ الحروب التي كانت تندلع بين الحين والآخر، بين المدن اليونانية، بينما عندما تصبح هذه الحروب ضد الفرس الذي يمثل الآخر فإنّها تُفضل عن السلام. في ظل هذا المناخ المشحون والمشبّع بكره الآخر، نشأت الفلسفة السياسية الكلاسيكية اليونانية كمنافٍ عنيدٍ لكل ما كان شرقياً. وعليه فقد كان التركيز الهيجلي على عبقرية اليونان كإفترضٍ مُسبق بأنّ الشرق يمثل

¹³ - هيغل، أصول فلسفة الحق، المرجع السابق، ص606.

نفيًا أو مصدرًا للخطر، وفي هذا السياق إبتدع كل من أفلاطون وأرسطو نوعاً من السياسة تكاد تكون فيها فكرة المجال الحيوي¹⁴ مقدّسة حيث إستلزمت تلك الفكرة إقامة معالم للتمييز بين الداخل والخارج¹⁵.

ج-البراديجم الروماني: يُشبهه "جون كريستوف روفان" Jean Christophe Rufin في كتابه «الإمبراطورية والبرابرة الجدد» الوضع الدولي السائد ما بعد الحرب الباردة بنظيره المثال في العصر الروماني، لا سيما بعد إنتصار الإمبراطورية الرومانية في حروبها ضد القرطاجيين خلال القرن الثاني قبل الميلاد. فالإمبراطورية الأمريكية اليوم أضحت بعد إنتصارها التاريخي على الإتحاد السوفيياتي (سابقاً) تتبوأ نفس المنزلة التي كانت تحتلها الإمبراطورية الرومانية بالأمس البعيد: إذا كانت روما تجسد السلم والإستقرار، وتتميز بوحدة السلطة والثقافة وتقيّد بالقانون وتجسد العدالة (إمبراطورية قانونية)، عكس البرابرة الذين كانوا مشتتّين، مُولعين بالقوة والعنف ولا يفكرون إلّا في الحروب. فإنّ واشنطن بوصفها الوريث الشرعي لروما ومن ورائها الغرب الرأسمالي أصبحت حالياً هي الأخرى مصدرًا للإستقرار والأمن، سيادة القانون والإشعاع الحضاري العالمي، في حين ما زال الآخرون (بقية العالم) يعانون من مآسي الأصولية المتطرّفة، المجاعة، الأوبئة،... إلخ، تحت نير أنظمة إستبدادية فاسدة. من حيث الشكل تبدو الولايات المتحدة الأمريكية في النظام الدولي الجديد بإعتبارها تمثّل المركز الرئيسي المؤثر في العلاقات الدولية والقطب الأوحيد المهيمن على حركة التفاعل الدولي بمثابة «الشمس» في «النظام الشمسي»، أمّا الدول الكبرى (الأطراف) فهي تشبه «السيارات» الرئيسية المحيطة «بالشمس». في حين أنّ بقية الدول الأخرى (أطراف الأطراف) فهي بمنزلة «الأجرام والتوابع» المرافقة لبعض «السيارات» في «النظام الشمسي» ككل¹⁶. هذا التوصيف¹⁷؛ يزيحنا إلى فينومينولوجيا للعلاقات الدولية الراهنة حينما نقارنها بسابقتها لدى الرومان، روما=الولايات المتحدة الأمريكية، كلاهما شيء نفسه له قصد واحد هو بناء إمبراطورية عظمى تسير في نسق جدلي محوره السلم والحرب في أفنوم مصلحة ذاتية للدولة المركز تغيب مصلحة الدولة الهامش.

د-البراديجم الجرمانى: قيل أنّ هيغل يُمجّد الدولة البروسية التي ينتهي عندها التاريخ في نظره، مع أنّه من المفروض أنّ هيغل توقّف عند الدولة البروسية لأنّها «الحاضر» الذي تصادف أن عاش فيه الفيلسوف الألماني، وهذا الحاضر هو

¹⁴ -المجال، يعني موقع ومساحة في لغة الجغرافي، أهداف إقليمية في لغة الجيوبوليتيكي، وبذلك يصبح حيويًا. أنظر: ظاهر عبد الزهرة الربيعي، «الوزن الجيوبوليتيكي للمساحة في إسرائيل: دراسة تطبيقية»، مجلة آداب البصرة، العدد: 56، كلية التربية، جامعة البصرة، 2011، ص264.

¹⁵ - عبد الله بوقرن، «الأخر في جدلية التاريخ عند هيغل»، أطروحة دكتوراه العلوم في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم الفلسفة، جامعة قسنطينة، السنة الجامعية: 2006 - 2007، ص19-20.

¹⁶ - بلخيرة محمد، «براديجمات العلاقات الدولية المعاصرة: المركزية الغربية نموذجاً»، أكاديميا للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاقتصادية والقانونية، جامعة الشلف، العدد العاشر، جوان 2013، ص82.

¹⁷ - نجد هذا الوصف الفينومينولوجي عند هيغل في محاضراته عن فلسفة التاريخ، لما أشار إلى العالم الفلكي الألماني يوهانس كبلر Johannes Kepler (1571 - 1630) المتأثر بمبادئ كوبرنيكوس وكذلك لتيكو براهي Tycho Brahe، من أبرز القوانين التي توصل إليها هو العلاقة الرياضية بين الزمن اللازم لدوران كوكب ما حول الشمس دورة كاملةً. أنظر: هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ: العقل في التاريخ، المصدر السابق، ص138-139.

القمة التي يبلغها تطور التاريخ البشري، لكنّه ليس نهايته¹⁸. هو نموذج يُؤرّخ للعلاقة بين الشعب الجرمانى والشعب اليهودى، الأول له رسالته السياسية المحتمية بقوة العقل، والثانى يبحث عن مصيره فى العالم المحتذية بالآيمان والاعتقاد بمقولة «شعب الله المختار».

من ثم، تعتبر فلسفة التاريخ عند هيغل المرحلة المثالية لحلّ التناقض الموجود بين الحداثة العقلانية والآيمان وذلك من خلال إحلال مفهوم المطلق لفهم سياق الدولة الحديثة. فى هذا الصدد يرى هابرماس أنّ الوعى الهيجلى بقضايا الحداثة أصبح اليوم حاضراً بوضوح، حيث أنّ هذا الوعى رسم المبادئ التوجيهية المتواجدة حالياً فى مناقشات ما بعد الحداثة. هذا بكلّ بساطة لأنّ الحداثة عند هابرماس «مشروع لم يكتمل بعد»¹⁹.

ترتيباً على ما تقدم تتبلور رؤية هيغل للعلاقات الدولية بمنظور تاريخى جدلى، يحتزل فيه حركة الطبيعة والمجتمع، التى تعود فى الأصل الى حركة الفكر ذاته، ونشاطه نحو التقدم والنشوء والارتقاء. الارتقاء من أدنى الطبقات التاريخية وهى الشرق إلى أعلاها وهو الجرمان، من هنا الأركيولوجيا التاريخية. نصبو من العنصر اللاحق إلى نسج روابط نقدية بين الفكرة عند هيغل وعالم السياسة والعلاقات الدولية تحديداً، هذا فى إعتبار أن أبرز المشكلات السياسية والدولية التى عاجلها هيغل فى نظريته السياسية هى محك جدل ومحل مقارنة.

3- الفكرة الهيجيلية: التمفصلات والتمثالات

ينبنى **تمفصل** (articulation) الفلسفى بالسياسى عند هيغل فى جانبه «البين - تفاعلى» للدولة، عند الإنطلاق من الفكرة التى تشكل نواة نظرية صلبة من فلسفته للتاريخ وهى «الوعى الذاتى» (Conscience de soi)، لنصل إلى مرحلة **تمثّلها** (représenter) للواقع بأشكاله الفردية والجماعية. فنرى كيف تتمفصل الآثار الفلسفية الهيجيلية فى ممارسة العلم داخل الوحدة السياقية والمنهجية للعلاقات الدولية.

قبل ذلك؛ لا يسعنا أن نفهم كلياً نظرية هيغل فى العلاقات الدولية من دون الإحاطة بمشروعه الفلسفى الأشمل. فقد كان مهتماً بالتغلب على جميع «الثنائيات» (dualisms) التى تعوق إحراز المعرفة الأصلية، وسعى هيغل إلى أن يُقوّض منهجياً الإستيمولوجيا التقليدية (رونيه ديكارت وإيمانويل كانط)، وأخضع المقدمات المنطقية التجريبية والعالمية

¹⁸ - المصدر نفسه، ص 165 - 166.

¹⁹ - André-Marie Yinda Yinda, «Penser les relation internationales Africaines des problèmes aux philosophèmes politiques aujourd'hui», *Polis, R.C.S.P. / C.P.S.R.* Vol. 8, Numéro Spécial, 2001, p.1

لتمحيص نقدي تفكيكي²⁰. في البداية ينبغي إستحضار أهمية التصور الفلسفي الكانطي في تشكيل الفكرة الجدلية وامتدادها إلى حقل العلاقات الدولية عند هيغل؛ ففي المادة الثالثة (article 3) من «القانون العالمي وشروط الضيافة العالمية، le droit cosmopolitique doit se borner aux conditions d'une hospitalité universelle»؛ الواردة في وثيقة إيمانويل كانط (Immanuel Kant) (كونيغسبرغ 1724- كونيغسبرغ 1804): «من أجل سلام دائم»: «ترهن متانة أو وثاق العلاقات بين الشعوب، بوجود فكرة القانون العالمي (l'idée d'un droit cosmopolitique) التي ستبقى خيالية ورمزية إن لم تبنى القانون المدني وقانون الأمم، يجب أن ترتقي هذه الفكرة إلى قانون إنساني عام، الذي يحقق السلام الأبدي (la paix perpétuelle)»²¹. وُصف هيغل بأنه أحد النقاد الكوموناريين (Communitarians) لمفهوم السلام الدائم²². حيث نخض هذا الأخير ضدّ ديمومة السلام عند كانط بإفترضه لتغيير السلام إلى حرب، والحرب إلى سلام، في عود أبدي. إذن كانت هذه المقاربة النقدية عند هيغل في رؤية كانط للسلام العالمي مفتاح للولوج إلى تحليل العلاقات الدولية بالمنهج الجدلي، وهناك ما يؤكد أنّ للهغيلية امتدادات وإشارات في الحقل، نذكر منها على سبيل المثال:

أولاً؛ أنّ النظريات المعيارية في العلاقات الدولية تعود جذورها إلى فلاسفة بارزين من أفلاطون، أرسطو، كانط، هيغل وماركس. فحسب براون (Brown) (1992) تمثل هذه النظريات -وعلى رأسها نظرية هيغل- تقاليد عريقة في الفكر، وإطار نظري شامل في دراسة حقل العلاقات الدولية، يركز على فلسفة أخلاقية ونظرية سياسية، حيث تمّ التخلي عن هذا الإطار مؤقتاً عندما انحرف الحقل نحو الاتجاه السلوكي (behaviouralist direction)²³. وهذا بالرغم من أنّ الفهم الحدائلي لهانس مورغوثو (Hans Morgenthau) (كوبورغ 1904- نيويورك 1980؛ عالم سياسة أمريكي من أصل ألماني، مؤسس المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية، له مؤلف «السياسات بين الأمم، Politics Among Nations» (1948)، كان مقوّضاً للقيم والمعايير التي كانت مقيدة لسلوك الفرد والدولة. حيث أزاح مورغوثو أفكار هيغل الواردة في فينومينولوجيا الروح (1807)، وفلسفة الحق (1821) وحذّر منها، لأنّها أغفلت مخاطر تجانس المجتمع (homogenization of society) الناجمة عن المساواة والمشاركة

²⁰ - دافيد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية: من ثيوسيدديس حتى الوقت الحاضر، المرجع السابق، ص 636-637.

²¹ - *Essai Philosophique*, «sur la paix perpétuelle Immanuel Kant avec préface de ch.L emonnier», G.Fischbacher Libraire éditeur, Paris, 1880, P27.

²² - مارتن غريفيثس وتيري أوكالاها، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية، مركز الخليج للأبحاث، دبي، 2008، ص 250.

²³ - Tim Dunne, Milja Kurki, and Steve Smith, *International Relations Theories: Discipline and Diversity* Oxford University Press, United Kingdom, Third Edition, 2013, P41.

العالمية في المجتمع، والتنكر للمجتمعات التقليدية لأنها لم توفر مصدر بديل للهوية²⁴. ثانياً؛ ترتد أصول النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت إلى النظريات الحديثة للوعي والديالكتيك فترة التنوير²⁵. فالبعد الأخلاقي لنظرية الفعل التواصلي عند يورغن هابرماس مستوحى من/ متجذر في نظرية هيغل عن الوعي الذاتي والإعتراف أو تشكيل الهوية، والنضال من أجل وحدة الوعي الذاتي، والإعتراف الداخلي وأثره في الأحداث الخارجية، وعلاقة المجتمع المحلي بالعالم. وبعبارة أخرى، يشير هابرماس مقتنياً بهيغل إلى أن النضال من أجل الإحترام والشرف والكرامة يمكن أن يؤثر على تفاعلنا مع الآخرين²⁶.

فعالاً؛ لقد كان هيغل أصل معرفي يندرج في فصل ثقافي هو ثقافة النظر والتحليل، التي تعد ثقافة أكاديمية نسقية تمنح الباحث في الحقل أدوات منهجية وتكتيكات معرفية واستراتيجيات تحليلية. فالنظرية المعيارية (théorie normatif) التي كان هيغل من مؤسسيها استوعبت النطاق النظري للعلاقات الدولية؛ إذ، أنّ المثالية تمثل بداية للتنظير المعياري، والنظرية النقدية ترمز إلى العودة نحو المعيارية والقيم في تحليل العلاقات الدولية. وكل ذلك رغم هيمنة البراديغم الواقعي في الحقل، الشيء الذي فرض سياق جدلي بين الاتجاهات الوضعية والمعيارية، التفسيرية والتكوينية، وما انتهى عن ذلك هو تشكل إتجاه توليفي وتركيب في حقل العلاقات الدولية.

4- إنعكاس التوليفة الهيغلية على التطور المنهجي والنظري لعلم العلاقات الدولية؛

تتصل مناقشة وُجّهات نظر هيغل حول العلاقات الدولية على وجه الخصوص بالمناقشة التي جرت مؤخراً بين «المجتمعيين» و«العالميين» داخل حقل النظرية السياسية²⁷. ومنذ أن برز هيغل باعتباره فيلسوفاً ومنظراً سياسياً في نظرية العلاقات الدولية خلال تفسيره لأسباب الحرب، ونتيجة للجدل الحاصل حول هذه الظاهرة، بدأت تظهر «معالم الحل الوسط في الحقل للتوفيق والتوليف بين الحجج البنائية والحسابات العقلانية المادية، Middle Ground Between Constructivist Accounts And The Rational-Material Accounts»²⁸. إنّ الإعتبارات الهيغلية حول العنف هامة، لأنّ لها علاقة بالأسباب الإجتماعية والثقافية والعقلانية للحرب، وبالموازاة وعن

²⁴ - ibid, P.68

²⁵ - ibid, P.172

²⁶ - ibid , P.176

²⁷ - Tony Burns, Realism and Utopianism in Hegel's Political Thought: National Sovereignty, International Relations and the Idea of a 'World State', Op. cit., P.3

²⁸ - Joseph Mackay and Jamie Levin, «The case for Hegel in International Relation Theory: Making War and Making States», Departement of Political Science, University of Toronto, p1. See link: www.cpsa-acsp.ca/papers-2010/MacKay-Levin.pdf.

كثب، أضافت البنائية مؤخراً هذه العوامل في تحليلها للعلاقات الدولية دون تحييد الأسباب المادية. أيضاً الدولة عند هيغل في «تحققها هي الفكرة الأخلاقية، his actuality of the ethical Idea»²⁹ «إستمر هذا التعريف لدى مدارس العلاقات الدولية لكنه شهد إضطراباً. مثلاً؛ الوطنية (patriotism)، اعتبرت سبب ونتيجة للحرب على حدٍ سواء، هذه الأخيرة التي تؤدي بدورها إلى نزاعات بين الدول، وحالة حب الوطن هي أحد الآثار الجانبية لها. على خطى هيغل، يشير ألكسندر ويندت Alexander Wendt (ماينز، ألمانيا الغربية 1958-؟ على يديه تأسست النظرية البنائية الاجتماعية في العلاقات الدولية، له كتاب «النظرية الاجتماعية للسياسة الدولية، Social Theory of International Politics») عام 1999 إلى أن التفاعلات بين الدول، وبين الوكالات والهيكل، تساعد على تمايز وتباين طبيعة النظام الدولي³⁰.

إنّ حجج المدرسة البنائية عام 1992 هي أنّ الدول كانت تحدد هويتها: من هي؟ وما هي مصلحتها؟ فيما يتعلق بالدول الأخرى داخل النظام الدولي، وتنص على وضع توقعات وهويات بناءً على التفاعلات. هذه الأخيرة يمكن أن تتغير مع مرور الوقت «من حرب هوبز إلى سلام كانط، والعكس بالعكس، from a hobbesian war to kantian peace and vice-versa»³¹، حسب ويندت هذا يتوقف على طبيعة التفاعل بين الدول: صراع أو تعاون (conflict or cooperation). إذن؛ فقد إرتبطت الأسباب الفكرية للحرب عند هيغل بالنقاش المتعلق بالعلاقات الدولية في المدرسة البنائية، هذا التقاطع، ينمُّ عن حضور الحجج المعيارية (normative argument) والتفسير العلمي الاجتماعي (social scientific explanation) للصراع جنباً إلى جنب، مما يجعل التأكيد الهيجلي بأنّ حماية إستقرار الهويات الوطنية يمكن أن يكون بمثابة تفسير للعنف المنظم في غياب تفسير لأساس المصلحة الذاتية³². بوقفة تحليلية للتقاطعات الموجودة بين هيغل والنظرية البنائية؛ نلاحظ أنّ نسقية هيغل حاضرة داخل الصرح البنائي، لأنّ الجدل الهيجلي في حدّ ذاته بنائي، يهدف إلى تركيب قضية جديدة تستأنف وتستكمل الرهانات النظرية والواقعية للظاهرة محل الدراسة في العلاقات الدولية.

²⁹ - Georg W.F Hegel, *Hegel's Philosophy of Right*, Trans. T .M .Knox. Oxford University Press, London, 1942, P.228

³⁰- Joseph Mackay and Jamie Levin, «The case for Hegel in International Relation Theory: Making War and Making States», Op. cit.,, p14-15.

³¹ - ibid.

³² - ibid.

في إعادة تقييم هيغل يمكن أن نُدقق في بعض الإشكاليات المركزية لعلم العلاقات الدولية. من هنا فإننا سنؤكد على أسباب الحرب في الوقت الذي لا يزال الجدل بين النظريات البنائية (Constructivism) والنظريات العقلانية (rationalism)³³ يهيمن على الدراسات الأمنية³⁴؛

النقاش البراديمي Paradigmatic Debate³⁵: العقلانية ← إتصال convergence ← البنائية؛

العقلانية ← تنخر Estrengement ← للجائية؛

= تصور بديل Aleternative View

يقدم هيغل أساسه لإعتبار الحرب من خلال السياسة الداخلية والهوية الوطنية. والحرب بدورها مرتبطة حسب هيغل بتكوين الدولة (State Formation)، أي الترابط السببي بين صناعة الدولة وصناعة الحرب. وهذا كذلك عند هيغل يمكن أن يساعد على شرح أهمية القومية (Nationalism) والحرب القومية (Nationalistic War) جنباً إلى جنب مع أسباب الإمبريالية من وجهة نظر عقلانية³⁶.

إنّ مقارنة هيغل لقضايا العلاقات الدولية في «فلسفة الحق» تُماثل مقارنته لفهم العلاقات البنائية للأفراد. ويعتبر «الفرد» في كل حالة بوصفه الكيان المعبر عن الحكم، هذا الشخص يسعى إلى الإعتراف «بالآخرين»، وفي حالة الفرد أطروحة الدولة هي دول أخرى. أبلغ صاحب أطروحة «الصراع من أجل الإعتراف» في «فينومينولوجيا الروح»، أنّه لا بد من إعادة معرفة الأسباب الأصلية للصراع الدولي، وفي نفس الوقت، لن يتمّ أبداً حلّ هذا الصراع، فحسب هيغل لا يوجد على المستوى العالمي حالة المعاملة بالمثل. إذا كان النضال من أجل الإعتراف، بين الأسياد والعبيد، له نتائج على المستوى الأدنى في إنشاء نوع من الدولة، يعيش ضمنها المواطنون أحراراً ومتساوين، في إطار واحد هو القانون السامي، فإن هذا -مع إصرار هيغل- لم ولن يحدث دولياً³⁷. هذا التداير والتقابل بين إمكانية الإعتراف واحتمال الصراع، يضع هيغل في خانة المنظرين لظواهر التعاون والصراع الدوليين، إذ يحاول هيغل أن يخرج بإمكانات تحليلية تجعل الباحث بارعاً في تفكيك مثل هذه التناقضات النظرية التي في جوهرها تحمل توافقات واقعية.

³³ - البنائية والعقلانية؛ مصدر تسمية البنائية هو أن المعنى هو مبنى إجتماعي "socially constructed." that meaning is مثال السيادة هي مؤسسة إجتماعية. أما العقلانية فهي منظور جاء لفهم الواقع الدولي على صورته الحقيقية، تبنت هذا المنظور كل من الواقعية والليبيرالية. أنظر:

Chapitre 17: «Constructivism», I-an hurd,

http://faculty.wcas.northwestern.edu/~ihu355/Home_files/17-Smit-Snidal-c17.pdf, P300

³⁴ - Joseph Mackay and Jamie Levin, Op. cit., P14-15.

³⁵ - اعتمدنا في إنجاز هذا المخطط البسيط على الأفكار الواردة في المرجع التالي:

- Andrew Bradley Phillips, «Constructivism», in Griffiths, M. (ed.), *International Relations Theory for the 21st Century: An Introduction*, London: Routledge, 2007, p. 61

³⁶ - Joseph Mackay and Jamie Levin, Op. cit., P.01.

³⁷ - Tony Burns, Op. cit., P12.

لقد أخذ على فلسفة هيغل أنّها برّرت إخضاع مصالح الفرد لمصالح الدولة، والتي تستند سلطتها إلى القوّة الغاشمة

كلياً، والتي تُقيم علاقاتها مع الدول الأخرى ضمن خواءٍ أخلاقي وتنظّمها عبر مبدأ «الجبروت هو الحق» (is Right Might)، لكن تشديد هيغل كان على الجبروت «الروحي» أو المعنوي لا المادي للدولة. فهو يرى أنّ للحرب بعض الفوائد الإيجابية ويُقرّ بشرورها الواضحة في آن واحد، وبدلاً من أن يكون مروجاً شريعياً عديم الإحساس لمذهب «الجبروت هو الحق»، ومزدرياً لـ«القانون الدولي»، أخذ هيغل يبدو متحسراً على أن مثل تلك القيود الرسمية لم تعد كما ينبغي أن تكون عليه. وتتطلع عوضاً من ذلك إلى الأعراف والأشكال المختلفة من الاعتراف المستندة إلى الأسرة، والجماعة، والمجتمع المدني، والدول في علاقاتها المتبادلة كتأثيرات مقيدة³⁸. فوفقاً لهيغل، يكمن سبب الحرب الرئيس في طبيعة الدولة الفريدة الممثلة في حكم ذاتي يحمي الهوية المجتمعية لسكانها. فالشعب وليد وسط معين، وهو يملك تاريخاً، لغةً مشتركةً، عادات، أهواء وقواعد سياسية وإجتماعية محدّدة، ولا يمكن لهويته أن تشمل البشرية جمعاء. فبالنسبة لهيغل، تندلع الحروب نتيجة نزاع بين طريقتين متضاربتين للحياة. وحتى عندما تتعاون الدول، تبقى أهدافها ومصالحها نُصب عينها. فيمكن توقيع المعاهدات وإقامة التحالفات، لكنّها تدوم بدوام المنفعة التي تجلبها على رفاه الأطراف المتعاقدة³⁹.

إذن؛ ينبني تصور هيغل لثنائية السلم والحرب على طبيعة الرؤية الإدراكية للدولة، فالرؤية القائمة على إدراك مبدأ التعاون تشكل منطق السلم في العلاقات الدولية، أما الرؤية المرتكزة على إدراك مفهوم الصراع فهي منطق الحرب في العلاقات الدولية. وأصل التعاون والصراع عند هيغل فلسفة الحياة لكل شعب، أي طريقة العيش معاً، إذا حدث توافق في طريقة الحياة أو تضارب... وهذا راجع كلّه إلى أهداف ومصالح كل طرف. لفهم هذه الفكرة لا بدّ من الرجوع إلى السياق التاريخي الذي وُلدت فيه الفكرة الهيجيلية حول الدولة.

نستنتج من هذا التحليل الموسّع أنّ هناك أبعاد نظرية ومنهجية على العلاقات الدولية إحدى مُسوّغات الطرح الداعي لإدراج هيغل في المناقشات المؤبّسة للحقل، بينما لا أحد يختلف في أنّ العمل النظري كمنجز هيجيلي في العلاقات الدولية لا يُصنّف ضمن المكانة التحتية⁴⁰. من هنا يمكن التعويل على النظرية الهيجيلية لأنّها ترتقي إلى تأسيس براديجم معياري ينافس ويناجز البراديجم الوضعي في حقل العلاقات الدولية. رغم أنّ هيغل في نظريته السياسية ينطلق أفلاطونياً (مثالياً) وينتهي أرسطياً (واقعياً) في تفسيره لنشأة الدولة الحديثة.

5-الدولة الهيجيلية (L' Etat hégélien): حقيقة الدولة والقانون الدولي؛ الحرب صيرورة وضرورة

³⁸ - دافيد باوتشر، المرجع السابق، ص 631-633.

³⁹ - مارتن غريفينس وتيري أوكالاها، المرجع السابق، ص 250.

⁴⁰ - Joseph Mackay and Jamie Levin, Op. cit., P.01

إنّ الدولة عند هيغل تقوم على أساس القانون، الذي يمثل العقلانية، ويجب التركيز هنا على: «أنّ ماهية الدولة هي القانون، فإننا لا نقول قانون الأقوى، أو قانون الرغبة، أو قانون المروءة الطبيعية، بل قانون العقل، الذي به يمكن لكلّ كائنٍ عاقلٍ أن يتعرّف على إرادته العاقلة، صحيح أنّ الدولة تُظهر لدوائر الحق الفردي، والعائلة، وحتى دائرة مجتمع العمل، كضرورة خارجية، كقوة عليا، لكن من جهة أخرى، الدولة هي الغاية الملازمة لهذه الدوائر، وقوتها تكمن في وحدة هدفها النهائي الكلي، والمصالح الخاصة لأفرادها»⁴¹. كما أنّ الدولة عند هيغل، تقوم على الحرية كمبدأ وعمل، وذلك لأنّها تتشكّل على أساس الإرادة، ضمن فلسفة الحق، والتي ماهيتها الأساسية الحرية، والدولة الفضلى بنظر هيغل هي الملكية الدستورية، لأنّها مركزية وقوية من جانب إرادتها، ولا مركزية من جانب المصالح الاقتصادية، وهي دولة بلا تدخل ديني، وهي ذات سيادة مطلقة في الداخل والخارج، وهذه هي الدولة الحديثة. ويفهم هيغل الدولة في مرحلتها هذه، والتي تُعدّ مرحلة إنتقالية إلى الدولة العالمية، على شكل دولة ملكية دستورية، لأنّ المبدأ الذي يُقرّر السيادة لا يمكن أن يكون إلا في مُلك، ويمكن قبول تعيينه بالولادة أو أيّ أسلوب آخر⁴². في فلسفة الحق (Philosophy of Right) يتحدث هيغل عن «فكرة الدولة» بمنطق «تكاملية ثلاثي»، في كثير من الأحيان يُعتقد (صواباً أو خطأً) أن تكون «الهيغلية» المتقدمة: «أطروحة»، «نقيض» و«التركيب» منهج جدلي مُطبّق على الظواهر: «مثلاً، الدولة بوصفها الفرد الكائن التي تعتمد على الذات والدستور، العلاقة بين دولة ودول أخرى يحكمها قانون دولي»⁴³.

في تحديده لمعنى الحرب وضرورتها، يُفند هيغل أن الحرب تُناقض مفهوم الدولة، بدعوى أنّ مهمة الدولة هي المحافظة على أرواح المواطنين والحرب تدمر أموالهم، ويرد هيغل على هذا القول بأن يقول: «لا ينبغي أن نعدّ الحرب شرّاً مطلقاً... بالحرب يُحافظ على الصحة الأخلاقية للشعوب في عدم إكترائها للأمور غير المحدّدة وفي مواجهة العملية التي بها هذه الأمور غير المحدّدة تستقرّ عادات وتُصبح ثابتة، مثلما أنّ حركة الرياح تُحافظ على المياه في البحيرات من خطر التعفن الذي يُصيبها به السكون المستمر، وهذا هو ما يحدثه للشعوب السلام المستمر، وبالأحرى السلام الدائم»⁴⁴. ويُستفاد من هذا الموضوع أنّ هيغل يرى في الحرب: أولاً؛ أنّها حالة طبيعية، تنسف بالأمور العرضية، والعرضي مآله حتماً إلى الزوال. ثانياً؛ الحرب دافع إلى التطور والتغيير، فلو لا الحرب لأصاب الشعوب العفن والفساد. ثالثاً؛ كلّما طالّت فترة السلام إزدادت أسباب إنحلال الشعوب، والسلام الدائم - إن وُجد - سيؤدي إلى فناء الإنسانية⁴⁵.

41 - علي عبود الخمداي، الفلسفة السياسية: كشف لما هو كائن، وخوض في ما ينبغي للعيش معاً، منشورات ضفاف-الاختلاف، الجزائر-بيروت، ط.1، 2015، ص171.

42 - المرجع نفسه.

43 - Tony Burns, Op. cit., P. 17

44 - عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص214-215.

45 - المرجع نفسه، ص214-215.

أمام هذا التحليل، نستدعي تحليلنا الخاص في إعتبار فردنة الدولة تنويج للنواة النظرية التي اعتمدها هيغل داخل نسقه الفلسفي الشامل وهي «جدل الفكرة»؛ القضية الأولى، الفرد؛ القضية الثانية، الدولة؛ التركيب، فردنة الدولة. يحيلنا هذا التركيب إلى معنى أساسي مرتبط بنزع القداسة عن الهيئات السياسية التي تدير شؤون الدولة، فالدولة تفتقد شخصيتها المعنوية حينما تتحول إلى فرد لها سلوك سياسي معين، خصوصاً وأنّ الجهاز المفاهيمي عند هيغل يفرق بين الحق والقانون، فالحق هو نسيج من العادات والأخلاق والأعراف والدين تحقق الفعل، والقانون خيط رفيع من هذا النسيج. فالقانون هو الذي يضمن التحقق الفعلي لهذه الأنسجة، سواء بالنسبة للسيادة الداخلية أو السيادة الخارجية. ولا يمكن أن نضع الدولة والحرب في صورة متناقضة، لأنّ الحرب هي وقود العملية البنائية للدولة في نظر هيغل. وفي هذه اللماحة أيضاً نشير إلى أنّه يمكن أن يتكرر نموذج الفردنة في المدرسة السلوكية، عندما إختزلت هذه الأخيرة سلوك الدولة في سلوك الفرد وبرز عندها ما يسمى «السلوك السياسي» كوحدة تحليلية.

إنّ هيغل في نظرية العلاقات الدولية، على الرغم من أهميته المركزية في النظرية السياسية، كثيراً ما يفتح على قانون العلاقات الدولية⁴⁶. ينطلق هيغل في تأسيسه للقانون الدولي على فكرة بسيطة، كما أشرنا سابقاً، وهي «فردنة الدولة»، لأنّه يعتبر أنّ الفرد يتماثل ويتشاكل مع الدولة في مسألة الحرية والإستقلالية.

يقول هيغل: «إنّ للدولة فردية، وهذه الفردية توجد جوهرياً بوصفها فرداً، وفي الحاكم بوصفها فرداً واقعياً مباشرة، the state has individuality, and individuality is in essence an individual, and in the sovereign an actual immediate individual» (البند 321)⁴⁷. والفردية، بوصفها وجوداً – من أجل ذاته مستبعداً للغير، تتجلى في علاقتها مع الدول الأخرى، التي كل واحد منها مستقلة بالنسبة إلى سائر الدول. ومعنى هذا أنّ الإستقلال هو جوهر أية دولة، وأنّه من الوهم أن تحاول دولة إدماج دولة أخرى في داخلها سواءً بالغزو أو بالتفاهم الوُدّي، لأنّ هذا الإندماج سيؤدي إلى فقدان الدولتين روحهما وكيانهما الحقيقي الجوهري. ومن هنا فإنّ التاريخ شهد محاولات لإدماج دولة في أخرى، بيد أنّها أخفقت إخفاقاً ذريعاً ولو بمرور فترة طويلة من الزمن. وهذا هو ما يفسر إنحلال الإمبراطوريات: المصرية القديمة، اليونانية التي خلفها الإسكندر المقدوني، إمبراطورية شارلكان (كارل الخامس)، إمبراطورية نابوليون، ... الإمبراطورية الروسية التي تفككت في عامي (1990 – 1991)⁴⁸.

إذن يشير هيغل إلى سبب عدم واقعية القانون الدولي العام حينما يقول: «إنّ القانون الدولي العام ينتج عن العلاقات بين دول مستقلة، وما هو في ذاته وبذاته يتخذ شكل ما يجب أن يكون، لأنّ وجوده الواقعي يقوم على إرادات

⁴⁶ – Joseph Mackay and Jamie Levin, Op. cit., P.01

⁴⁷ – Georg W.F Hegel, *Hegel's Philosophy of Right*, Op. cit , P.309

⁴⁸ – عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص. 212-213

International law springs from the relations between مختلفة ذات سيادة، autonomous states. It is for this reason that what is absolute in it retains the form of an ought-to-be, since its actuality depends on different wills each of «which is sovereign» (البند 330)⁴⁹.

الحديث عن تنازع الإرادات، يقودنا إلى تدقيق مفهوم الحرب الباردة التي اعتبرت في التحديد القاموسي والاصطلاحي «صراع أيديولوجي»، بيد أنه يوجد إلتباس وغموض في فهم هذا المصطلح، خاصة في حقل العلاقات الدولية. في تقديري أنّ هذا الصراع ليس بين القوى الكبرى التي تتمثل قُطبي الصراع وهي الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي، بل هو صراع بين مُدركات وقيم ومعتقدات وإرادات صُنّاع القرار داخل كلّ وحدة سياسية في مواجهة الوحدة السياسية المجابهة. إذن الصراع الأيديولوجي أطرافه أفراد وليس دول. فالسلوك السياسي للدولة ما هو في الحقيقة إلاّ تتمثل أنطولوجي (Representation Ontological) لإرادات الأفراد المتنازعة حول مصالح حيوية معينة. لقد كان للفلسفة الهيجلية حضور في إحدى كتابات المنظرين المعاصرين خلال فترة ما بعد نهاية الحرب الباردة، حيث وظفت في تفسير الديمقراطية كآخر نظام سياسي للحكم، وبها يُسدل الستار على التاريخ.

6- هيجل، كوجيف وفوكوياما: ثالث النهاية في العلاقات الدولية

كان لألكسندر كوجيف Alexandre Kojève (موسكو 1902 - بروكسل 1968؛ فيلسوف سياسي روسي، مجدد الهيجلية في فرنسا) في ثلاثينيات القرن العشرين، إسهام تتمثل في محاضراته بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا (الدورة الخامسة) حول فلسفة الدين عند هيجل، خلال هذه الفترة أجرى قراءة لفينومينولوجيا الروح، التي كانت بمثابة مقدمة لقراءة هيجل اليوم⁵⁰. يعتقد الأستاذ كوجيف أنّ هيجل كان ينتظر من نابليون أن يُرسي «دولة كَلّية ومتجانسة» يتطابق قيامها مع إكتمال الفلسفة الألمانية في النسق الهيجلي، وهذا يعني الدلالة على «نهاية التاريخ»⁵¹. انطلاقاً من هذه الفكرة يدعو فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama (شيكاغو 1952 -؟ فيلسوف، إقتصادي وباحث في العلوم السياسية الأمريكية) إلى إعتقاد مفهوم الإعتراض الذي أطلقه الفيلسوف الألماني هيجل، بالإضافة إلى نظرية التاريخ الغائي لتفسير تفوّق الديمقراطية الليبرالية في الساحة السياسية. فالنمو الإقتصادي يتعزز في ظلّ الأنظمة السياسية

⁴⁹ -Georg W.F Hegel, Op. cit., P.316

⁵⁰ - Alexandre Kojève, *Introduction à La lecture de hegel*, Bibliothèque nationale, Galimard, Paris, p.07

⁵¹ - رينيه سّرّو، هيجل والهيجلية، ترجمة أدونيس العكره، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993، ص 68-69.

المتنوعة والمتعددة بما فيها الفاشية والشيوعية، لكن الديمقراطية الليبرالية وحدها تلتقي مع حاجات الإنسان الأساسية كالإعتراف والحرية السياسية والمساواة. إن هيجل هو من إفترض أنّ نهاية التاريخ ستحل عندما ينجز البشر نوع الحضارة الذي يرضي رغباتهم الأساسية. بالنسبة إلى هيجل، نقطة النهاية هذه هي الدولة الدستورية. وفي نصه، يشير هيجل إلى أن نابليون كان الرائد في هذا المجال بداية القرن التاسع عشر. ويصرح فوكوياما قائلاً: «إننا بحاجة إلى اعتماد مثالية هيجل الفلسفية من جديد والتخلي عن فلسفة ماركس المادية وأتباعها، التي تقول إنّ الاشتراكية ضرورية لتخطي اللامساواة في المجتمعات الرأسمالية»⁵². وعليه، يجد فوكوياما في نظريات هيجل تفهوماً عميقاً لطبيعة الإنسان، لا توحى به أفكار فلاسفة كتوماس هوبز وجون لوك.

في هذا الاتجاه، ينطلق فوكوياما من شبكة مفاهيمية أفلاطونية، فيعرض لـ«تيموس»، والذي ترجم إلى الروحانية، الشجاعة والرغبة. أما «الميلغوثيميا» فهي تيموس الرجال العظماء محركي التاريخ كقيصر وستالين. وأخيراً؛ «إيزوثيميا» وهي المطالبة المتواضعة بالإعتراف بواسطة المساواة لا التفوق، بناءً على ذلك يعد التاريخ صراع بين هذين الشغفين. ومن ينهي هذا الصراع هو عبقرية الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية. إنّ جدلية السيد والعبد هي محرك أول للتاريخ الذي لا يمكن أن يشهد الإستقرار ما دام البشر منقسمين إلى سادة وعبيد. فلن يقبل هؤلاء إطلاقاً بصفة التبعية المنسوبة إليهم، وهنا تظهر عبقرية الديمقراطية في قدرتها على المصالحة بين أنواع الرغبة التي ذكرها أفلاطون؛ فتحلّ المساواة السياسية في المجتمع بدلاً من التفوق والسيطرة. وحجّة هؤلاء الذين يناضلون من أجل السيطرة هي فكرة إيجاد الثروة التابعة للفكر الرأسمالي وجمعها. ويعتمد فوكوياما أيضاً على تفسير فلسفة هيجل الذي قدّمه كوجيف، عن أنّ دولة الرفاه قد حلت مشكلات الرأسمالية التي طرحها ماركس. وقد نجحت الرأسمالية في إزالة تناقضاتها الداخلية. بالإضافة إلى ذلك، هي لا تؤمن الإزدهار المادي فقط، إنّما أيضاً الأفكار والقيم المتجانسة وتضعف إصطدام الأيديولوجيات بين الدول، لذا فهي تُقلّل من خطر الحرب والتهديد بها. إنّ هيجل نفسه لم يعتقد أنّ نهاية الحرب بين الدول قد تكون مُحتملة على الصعيد الدولي. إتفق كوجيف وفوكوياما على أنّه فيما تستمر الحروب، يُعزّز تجانس القيم بين القوى العظمى عملية السلام في الدول الكبرى، وهي الأهم على المدى البعيد⁵³.

في كتابه «نهاية التاريخ والرجل الأخير» (1992)، يدرس فوكوياما الديمقراطية الليبرالية دراسة نقدية في بلدان أمريكا اللاتينية عام 1980، كمظهر من مظاهر النهاية بعد مسار أطول، والتي نشأت من رحم الثورات الفرنسية والأمريكية. يشير فوكوياما أنّ إنتشار وتطوير الديمقراطيات الليبرالية في جميع أنحاء العالم يمكن فهمه وفق مفهوم هيجل

⁵² - مارتن غريفيس، تيري أوكالاها، المرجع السابق، ص 446-447.

⁵³ - المرجع نفسه، ص 446-447.

«الإعتراف». ورداً على تصور فوكوياما، إقترح بريان ويلكوس Bryan Wilcox من جامعة نيوميكسيكو في مقاله: «أشكلة فوكوياما: القولية الهايدجرية كبديل للإعتراف عند هيغل في معالجة الديمقراطية في العالم»⁵⁴، يمكن الاستعانة برؤية هايديجر لشرح صعود وإستمرار الديمقراطية الليبرالية في العالم بأكثر دقة، فقد تميزت نهاية العصر الحديث أساساً ما قبل «النيتشوية»، بإرادة قوية للتحرر من قيود الميتافيزيقا، وعليه الديمقراطية الليبرالية في الدول هي نتيجة لرفض الميتافيزيقا، وليس الرغبة في الإعتراف الذاتي، على النحو الذي اقترحه فوكوياما من خلال تفسيره لهيغل، خاصة وأن هايديجر كان يسعى إلى تدمير الميتافيزيقا وتفجيرها من خلال مشروعه الأنطولوجي، وأشكلة أطروحة فوكوياما كانت ضمن هذا المسار عند بريان حيث أنّ أطروحة فوكوياما وصلت سقف الميتافيزيقا، لأنّ التاريخ البشري أثبت تناقضها كلياً.

خاتمة:

يقتضي الأمر إعادة التفكير في هيغل والانفتاح على فكره، لقد أضاف هيغل المنهج الجدلي في تحليل ظواهر العلاقات الدولية، خاصة السلم والحرب؛ فهم العلاقات الدولية بمنظور جدلي يفترض أنّ الحرب ظاهرة طبيعية والسلم ظاهرة إنسانية، والانسان والطبيعة كلاهما ينتميان إلى حركة الجدل، فالانسان دائماً في صراع مع الطبيعة، لكن هيغل يبحث عن قانون في الجدل هو قانون التغير الأبدي والنشوء والارتقاء، هدفه إبقاء الصراع لكن في الآن ذاته، إخراجها من ديمومتها. إنّ الدولة في نظر هيغل ترتكز على العقلانية بيد أنّها متناقضة في مواجهتها للحرب وفي دخولها ضمن اعتبارات القانون الدولي الذي هو في الأصل غير واقعي يشهد اختراقات وتجاوزات، لذلك لا بد من طرح بديل إنساني يتجاوز صنمية القانون، هذا البديل هو الاعتراف الذي يستمد أصوله من السوسيولوجيا الحديثة. إن براديجم الاعتراف في العلاقات الدولية ذو أهمية نظرية كبيرة لأنه يخفف من حدة الصراع الدولي، في الوقت الذي نجده مفارقاً لمقولة النهاية التي تحضى بمكانة هامة في فلسفة التاريخ البشري التي جاء بها هيغل ونقلها تيار ما بعد الهيغلية (Post-hégélienne) متمثلاً في كوجيف من خلال اكتمال النسق وفيما بعد طورها فوكوياما إلى نهاية التاريخ، وقد استمر هذا البراديجم مع النظرية الاجتماعية النقدية في العلاقات الدولية، والذي اتجه نحو التنظير لظاهرة التعاون الدولي.

إنّ الديمقراطيات المعاصرة المبنية على دولة الحق والقانون في العلاقات الدولية تمتد بأصولها إلى الهيغلية. إذ لا يمكن دراستها بشكل حقيقي إلا بالرجوع إلى النظريات المعيارية، وعليه فقد أسهم هيغل في تطوير الاتجاه التركيبي أو التكويني

⁵⁴ -Bryan Wilcox, «Problematizing Fukuyama: Heidegger's 'Enframing' as an Alternative to Hegel's 'Recognition' in Studies of Global Democratization», *Conference Papers - New England Political Science Association*, 2012, p1-9.

(Constitutive Trend) في العلاقات الدولية والتوليف بين النظريات العقلانية والنظريات البنائية لطرح رؤية

شاملة في تفسير الظواهر الدولية.

المصادر والمراجع

- باوتشر، دافيد، النظريات السياسية في العلاقات الدولية: من ثيوسيديدس حتى الوقت الحاضر، ترجمة رائد القاقون، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2013
- بخضرة، مونس، تاريخ الوعي: مقاربات فلسفية حول جدلية إرتقاء الوعي بالواقع، منشورات الإختلاف-الدار العربية للعلوم، الجزائر-بيروت، ط.1، 2009
- بدوي، عبد الرحمن، فلسفة القانون والسياسة عند هيغل، دار الشروق، بيروت، ط1، 1996
- غريفيثس، مارتن وتيري أوكالاهان، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية، مركز الخليج للأبحاث، دبي، 2008
- بوقرن، عبد الله، «الآخر في جدلية التاريخ عند هيغل»، أطروحة دكتوراه العلوم في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم الفلسفة، جامعة قسنطينة، السنة الجامعية: 2006 – 2007
- الربيعي، ظاهر عبد الزهرة، «الوزن الجيوبوليتيكي للمساحة في إسرائيل: دراسة تطبيقية»، مجلة آداب البصرة، العدد: 56، كلية التربية، جامعة البصرة، 2011
- سرّو، رينيه، هيغل والهيغلية، ترجمة أدونيس العكره، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993
- لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001
- محمد، بلخيرة، «براديجمات العلاقات الدولية المعاصرة: المركزية الغربية نموذجاً»، أكاديميا للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاقتصادية والقانونية، جامعة الشلف، العدد العاشر، جوان 2013
- المحمداوي، علي عبود، الفلسفة السياسية: كشف لما هو كائن، وخوض في ما ينبغي للعيش معاً، منشورات ضفاف-الاختلاف، الجزائر-بيروت، ط.1، 2015
- هيغل، غيورغ فلهيم فريدريش، أصول فلسفة الحق، المجلد الأول، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996
- فينومينولوجيا الروح، ترجمة وتقديم ناجي العونلي، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2006
- محاضرات في فلسفة التاريخ : العقل في التاريخ، المجلد الأول، ترجمة وتقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 2007

- Burns, Tony, «Realism and Utopianism in Hegel's Political Thought: National Sovereignty, International Relations and the Idea of a 'World State'», *Working Paper Series*, Centre for the Study of Social and Global Justice, School of Politics & International Relations, University of Nottingham, P 17. See Link : www.nottingham.ac.uk/cssgj/documents/working-papers/wp006.pdf
- Dunne, Tim, Milja Kurki , and Steve Smith, *International Relations Theories: Discipline and Diversity* Oxford University Press, United Kingdom, Third Edition, 2013
- *Essai Philosophique*, «sur la paix perpétuelle Immanuel Kant avec préface de ch.L emonnier», G.Fischbacher Libraire éditeur, Paris, 1880
- Hegel, Georg W.F, *Hegel's Philosophy of Right*, Trans. T .M .Knox. Oxford University Press, London, 1942. Phillips, Andrew Bradley, «Constructivism», in Griffiths, M. (ed.), *International Relations Theory for the 21st Century: An Introduction* London: Routledge, 2007
- Hurd, Ian, «Constructivism», *Chapitre 17*: http://faculty.wcas.northwestern.edu/~ihu355/Home_files/17-Smit-Snidal-c17.pdf
- Khan, Khurshid, «*Limited War Under the Nuclear Umbrella and its Implications for South Asia*», See Link: www.stimson.org/images/uploads/research-pdfs/khurshidkhan.pdf
- Kojève, Alexandre, *Introduction à La lecteur de hegel*, Bibliothèque nationale, Galimard, Paris
- Mackay, Joseph and Jamie Levin, «The case for Hegel in International Relation Theory: Making War and Making States», Departement of Political Science, University of Toronto, p1. See link: www.cpsa-acsp.ca/papers-2010/MacKay-Levin.pdf
- Wilcox, Bryan, «Problematizing **Fukuyama**: Heidegger's 'Enframing' as an Alternative to **Hegel's** 'Recognition' in Studies of Global Democratization», *Conference Papers - New England Political Science Association*, 2012
- Yinda, André-Marie Yinda, «Penser les relation internationales Africaines des problèmes aux philosophèmes politiques aujourd'hui», *Polis, R.C.S.P. / C.P.S.R.* Vol. 8, Numéro Spécial, 2001